الأربعاء الحر: من تقديس البطل إلى تخليق الذات (1 من 2)

نشرة "الإنسان 2019/01/16
السنة الثانية عشرة – العدد: 4155

بروفيسور يحيى الرخاوي – الطب النفسي، مصر
yehiatrakhawy@hotmail.com

أن كل فرد – دون استثناء – هو مشروع بطل بوعى أو بدون وعى، وأن فكرة البطل (والبطولة) ليست قاصرة على بعض المتميزين والقادة

أن الإنسان الفرد يخلق ذاته باستمرار، لا يستلمها جاهزة، ولا يقرها ساكنة، وأن البطولة الحقيقية هى فى الحفاظ على زخم هذا الإيقاع المتجدد لتخليق الذات

مسيرة التطور تعلمنا كيف أن وسائل الحياة تغير الأحياء الذين يصنعونها فيرتقون بها إلى ما تعد به فطرتهم ليتجاوزوها ثم يبدعون ما هو أقدر إلى ما هو أرقى فأرقى

إن ما أتيح للإنسان المعاصر من أدوات حديثة كادت تصبح امتدادا لتركيبه البيولوجى قد غيرت وتغير فى تشكيلات وعيه وطبيعة علاقاته ومنظومات قيمه

لا شيء يدوم إلا الحركة. علينا

الأربعاء الحر:

نبذة: قراءة نقدية لفكرة "البطل" تاريخا وسيرة دوراً مع إشارة إلى مفهوم "الأسطورة الذاتية" (1)، وأن كل فرد – دون استثناء – هو مشروع بطل بوعى أو بدون وعى، وأن فكرة البطل (والبطولة) ليست قاصرة على بعض المتميزين والقادة وأن الإنسان الفرد يخلق ذاته باستمرار، لا يستلمها جاهزة، ولا يقرها ساكنة، وأن البطولة الحقيقية هى فى الحفاظ على زخم هذا الإيقاع المتجدد لتخليق الذات، ثم إنه بعد فتح آفاق المعرفة للجميع بكل الوسائل تراجعت الحاجة اللحوح لتخليق بطل بين الحين والحين نعتمد عليه وننساق وراءه.

من تقديس البطل إلى تخليق الذات (1 من 2)

أى شخص عادى هو "مشروع بطل" منذ الولادة بقدر ما هو أسطورة واعدة قابلة للنماء والتطور. إننا بحسن استعمال أدواتنا الأحدث وبمواصلة استثمار تواصلنا الحر يمكن أن تكون فرص كل منا فى الاقتراب من أسطورته الذاتية أكبر وآمن ومن ثم فى إطلاقها إلى ما تعد به من تواصل وإبداع. إن صح ذلك فإن فيه ما يغنى عن صناعة الأبطال حتى نُسقط عليهم ما عجزنا عن تحقيقه بأنفسنا لأنفسنا وللناس.

مسيرة التطور تعلمنا كيف أن وسائل الحياة تغير الأحياء الذين يصنعونها فيرتقون بها إلى ما تعد به فطرتهم ليتجاوزوها ثم يبدعون ما هو أقدر إلى ما هو أرقى فأرقى هذا إذا كان للنوع ألا ينقرض. إن ما أتيح للإنسان المعاصر من أدوات حديثة كادت تصبح امتدادا لتركيبه البيولوجى قد غيرت وتغير فى تشكيلات وعيه وطبيعة علاقاته ومنظومات قيمه. لا شيء يدوم إلا الحركة. علينا أن نواكبها بإعادة النظر نقدا ثم تصحيحا فانطلاقا.

لعل فى هذا ما يدعونا إلى مراجعة كل ما هو نحن أو ما نتصور أنه نحن بجهد لا يكل. إن تاريخ "البطل" و"البطولة" يمثل منظومة محورية عبر تاريخ الحياة البشرية برمتها يتجلى ذلك بوجه خاص فى الملاحم الكلاسيكية والشعبية على حد سواء كما يتجلى فى الأسطورة وفى واقع الحياة معا. إن المراجع لما آلت إليه قيمة ما يسمى البطولة قد يتبين احتمال قرب انتهاء عمرها الافتراضى ليحل محلها ما لا نعرف مما يعد بما يمكن.

نبدأ من التاريخ

أن نواكبها بإعادة النظر نقدا ثم تصحيحا فانطلاقا.

ما هى حقيقة حكاية الأبطال الذين يحكى عنهم التاريخ هل وجدوا فعلا بهذا الحجم على تلك الصورة أم أننا نحن الذين صنعناهم للقيام بدور محدد

السير الذاتية لمثل هؤلاء الأبطال هى أقرب إلى الملهاة أما السير التاريخية فهى لا تعدو أن تكون اجتهادات تقريبية مهما بلغت دقة التوثيق

مجرد أن نتذكر أن مثل هذا البطل كان إنسانا ينام ويصحو ويتكلم وينسى ويحلم ويلهو ويأكل ويُخرج.... إلخ يمكن أن يجعل نظرتنا تختلف إليه وربما يتغير تقديرنا له

عبر التاريخ وحتى الآن: لم يعدم الناس وسيلة لتخليق الأبطال ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فإن لم يتمكنوا من ذلك على أرض الواقع فإنهم يصنعونهم صناعة فيما يمارسون من فنون مختلفة على مستويات متعددة

إن من أهم أفضال ما يسمى الديمقراطية أنها حين طبقت بشكل جيد حدت من إلحاح ظهور ودوام دور ما يسمى "البطل" (الزائف عادة)

ما هى حقيقة حكاية الأبطال الذين يحكى عنهم التاريخ هل وجدوا فعلا بهذا الحجم على تلك الصورة أم أننا نحن الذين صنعناهم للقيام بدور محدد أو على الأقل أن يكون بيننا مستقبلا؟ السير الذاتية لمثل هؤلاء الأبطال هى أقرب إلى الملهاة أما السير التاريخية فهى لا تعدو أن تكون اجتهادات تقريبية مهما بلغت دقة التوثيق.

أصبح من الضرورى أن ننتبه إلى حقيقة ما يصلنا حين نقرأ سيرة بطل ما (تحت أى مسمى وفى أى حقبة تاريخية) . مجرد أن نتذكر أن مثل هذا البطل كان إنسانا ينام ويصحو ويتكلم وينسى ويحلم ويلهو ويأكل ويُخرج.... إلخ يمكن أن يجعل نظرتنا تختلف إليه وربما يتغير تقديرنا له. أنا لا أزعم بذلك أنه سوف يبدو اقل من حجمه بالضرورة وإنما أتصور أنه سوف يتمثل لنا بشكل مختلف. أميل فى هذه المداخلة التى لا يمكن أن تتجاوز إشارات محدودة إلى قضية بهذا الحجم أن أتجنب الاستشهاد بأسماء بذاتها حتى لا أستدرج إلى حوار توثيقى مع أو ضد أى اسم لبطل محدد تكفينى الدعوة لقراءة الروايات المختلفة حول أى من "اخناتون" أو "عمرو بن العاص" أو " الإسكندر الأكبر" أو "نابليون" أو غيرهم نقرأهم "بما هم" ما أمكن ذلك وليس كما نحب أن نراهم أو كما زيفهم التاريخ لأغراض ليست كلها طيبة.

كثير من الأبطال كان لهم دورهم الإيجابى وإنجازاتهم الرائعة وقد نالوا عليها ما يستحقون وما لا يستحقون: شكرا وذكرى وتقديسا أحيانا لكن الأوان قد آن للنظر إلى الجانب الآخر من الحكاية.

مجالات التجليات

عبر التاريخ وحتى الآن: لم يعدم الناس وسيلة لتخليق الأبطال ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فإن لم يتمكنوا من ذلك على أرض الواقع فإنهم يصنعونهم صناعة فيما يمارسون من فنون مختلفة على مستويات متعددة: من أول الملاحم الشعبية حتى التصوير التشكيلى مرورا بفنون الحكى طولا وعرضا. الأمثلة أشهر من أن يشار إليها تفصيلا (مثلا: الزناتى خليفة وأبو زيد الهلالى من أبطال الملاحم الشعبية). ثم إن الإبداع الحكائى قد تناول القضية من أبعاد أروع وربما أكثر مصداقية من توثيق التاريخ (راجع فتوات نجيب محفوظ عموما ثم خاصة فى ملحمة الحرافيش) ثم بدا مؤخرا أنه لم تعد هناك حاجة أصلا لأن يركز أى عمل إبداعى على بطل فرد أو يتمحور حول بطل بذاته.

ثمة منطقة أخرى بدت لى أكثر مقاومة للتنازل عن استعمال ما قدرت أنه بطولة ألا وهى منطقة التميز الفائق فى مجالات المهارات الرياضية خاصة والذهنية أحيانا. إن أكثر ما تستعمل فيه ألفاظ "البطولة" فى أيامنا هذه هى مجالات تبدو أقل قسوة وأهون خداعا وربما أكثر تحضرا وأقرب إمتاعا لكنها أبهت ظلا وأسطح خيالا. لا يمر يوم علينا حاليا إلا ونحن نسمع عن "بطولة" الدورى "وبطل" ألعاب القوى ثم "بطل" الشطرنج "وبطل" البريدج ثم بطولة المجموعات على المستوى الإقليمى حتى العالمي. ترى هل يعنى ذلك أننا أزحنا كلمة البطولة من مجالات استعمالاتها التاريخية الأصلية إلى مجالات يمكن أن تحتوى حاجة الناس إلى خلق أبطال المهارة والتنافس الذين يسيرون على الأرض من حولنا مثلنا.

بطولات "مضروبة"

إن من أهم أفضال ما يسمى الديمقراطية أنها حين طبقت بشكل جيد حدت من إلحاح ظهور ودوام دور ما يسمى "البطل" (الزائف عادة) . أثبتت الديمقراطية الصحيحة أنها قادرة– إذا مورست بشكل جاد وعملي– على أن تلغى من قاموس البطولة صورتين متميزتين هما: صورة "الزعيم البطل– الأوحد" وكذلك صورة "الزعيم –البطل– الخالد (وليس فقط خالد الذكر) أضف إلى ذلك أن ما يسمى

"الشفافية" وهى إحدى آليات الديمقراطية راحت تلاحق هؤلاء الأبطال أولا بأول فتخفف أو تحول دون تقديسهم أو هى تسارع بتعريتهم بعد ذلك بقليل. ومن ثم تحول دون تمنطقهم أنواط البطولة بلا مؤهلات. هكذا لم تعد البطولة ترتبط بالسلطة تلقائيا.

مؤخرا حلت ألاعيب الإعلام الأحدث عبر الفضاء محل الملاحم الشعبية، كما حلت القنابل الذكية محل الفروسية، كذلك حلت الشعارات البراقة محل الإغاثة والشهامة والإجارة. ترتب على ذلك أن ظهرت بطولات براقة زائفة ولو لفترة قصيرة لكنها سرعان ما تتعرى أمام خبطات الواقع فضلا عن ملاحقة الوعى الشعبى (من خلال الشفافية). لا يمكن لمثل كلينتون خاصة بعد حكاية الست مونيكا بتفاصيلها أن يستحق لقب البطولة مهما بلغت جاذبيته الجنسية أو احتد ذكاؤه أوخف ظلـه، كما لا يمكن لمثل دبليو بوش أن يصبح بطلا وهو بهذا الغباء الذى ملأت أخباره صحف العالم بتعليقاتها ورسومها الكاريكاتيريه بما حال ويحول دون أن يعتلى كرسى البطولة الذى يحلم به، مهما بلغ عدد ضحاياه فى أفغانستان أو العراق أو فلسطين وحتى إذا نجح أحد هؤلاء الأبطال أن يفلت من قبضة الفضائح والشفافية والنقد الملاحق، فإن تحديد مدة جلوسه على كرسيه بفترة محدودة فى البلاد المتحضرة سرعان ما سينزله عن عرشه المزعوم برقة دستورية وإلا لما سمعنا عن رؤساء سابقين فى بلد مثل أمريكا وغيرها يزرعون الفول السودانى أو يعملون كمقدمى برامج تليفزيونية أو يسترزقون من كتابة مذكراتهم بعد رحيلهم.

الأمر يختلف فى البلاد المتخلفة مثلنا، فما أن يعتلى أى عابر سبيل كرسى السلطة حتى تظهر عبقريته التى كانت كامنة فى الظل ثم تتلاحق معجزاته، ويحتد حدسه ويتفرد حضوره الذى ليس كمثله شىء، ومع ذلك فالوعى الشعبى يلاحقه بالنكات والنقد حتى لا يتمتع طويلا بصورته المصنوعة، اللهم إلا إذا قضى فى لحظة باكرة تناسب هشاشته ومع ذلك فقد ينصب بطلا تاريخيا تكملة للحلم الذى كان يمثله.

لماذا احتاج . و يحتاج . الناس إلى تصنيع الأبطال؟

آن الآوان أن نعرج قليلا إلى جذور حاجة الناس إلى خلق أبطال أكثر من التركيز على حاجة البطل أن يكون كذلك، سوف أكتفى فى هذا الصدد بثلاث مداخلات لتفسير حاجتنا إلى تخليق البطل.

1) الحاجة إلى الاعتماد

الكائن البشرى لا يكون كذلك إلا فى حضور وعيه فى مواجهة وعى "آخر" من نفس نوعه على أرض واقعهما معا.. يستتبع ذلك ما يمكن أن يسمى حق الاعتمادية (المتبادلة فى النهاية). نحن عادة لا نعترف بهذا الحق ظاهرا وتماما حين يتمادى فريق منا فى الأخذ والتبعية دون العطاء والمسئولية بالتبادل، ومع إقرار حقيقة الاختلافات الفردية فإن الناتج الموضوعى هو أن أى جماعة من الناس سوف تفرز قائدا لها تعتمد عليه، ولو فى مجال بذاته، ولو لفترة معينة. .يتخلق القائد أو الرئيس بطلا بعد ذلك حين يتسع مجال تأثيره، وتتعدد مجالات نفوذه، وتطول مدة الاعتماد عليه.

2) إسقاط الأسطورة الذاتية

لكل منا أسطورته الذاتية وهى منظومة تكونت وتتكون من التاريخ الشخصى ممتدا فى النوع، وهى منظومة غائرة غامضة وإن كانت راسخة متمادية مبدعة أبدا (أنظر بعد). هذه المنظومة تقترب من الوعى وتبعد عنه بقدر نشاط عملية النمو الفردى وسلامة خطواتها، إلا أن معظمنا فى غالب الأحوال يتعامل معها بالحيل المناسبة مرحلة تلو الأخرى بحسب زخم إيقاع مسيرة نموه، ودفع نبض حركية

أثبتت الديمقراطية الصحيحة أنها قادرة- إذا مورست بشكل جاد وعملي- على أن تلغى من قاموس البطولة صورتين متميزتين هما: صورة "الزعيم البطل- الأوحد" وكذلك صورة "الزعيم - البطل- الخالد

أن ما يسمى "الشفافية" وهى إحدى آليات الديمقراطية راحت تلاحق هؤلاء الأبطال أولا بأول فتخفف أو تحول دون تقديسهم أو هى تسارع بتعريتهم بعد ذلك بقليل

الأمر يختلف فى البلاد المتخلفة مثلنا، فما أن يعتلى أى عابر سبيل كرسى السلطة حتى تظهر عبقريته التى كانت كامنة فى الظل ثم تتلاحق معجزاته، ويحتد حدسه ويتفرد حضوره الذى ليس كمثله شىء

الحاجة إلى الاعتماد
الكائن البشرى لا يكون كذلك إلا فى حضور وعيه فى مواجهة وعى "آخر" من نفس نوعه على أرض واقعهما معا

لكل منا أسطورته الذاتية وهى منظومة تكونت وتتكون من التاريخ الشخصى ممتدا فى النوع، وهى منظومة غائرة غامضة وإن كانت راسخة متمادية مبدعة أبدا

إبداع ذاته، من تلك الحيل التى نلجأ إليها حين نفشل فى التعامل مع أسطورتنا الذاتية أن نسقطها خارجنا على بعض من يمكن أن يمثلها أو يرمز لها ليس فقط بما هو وإنما أيضا بما نتصوره فيه، فينشأ البطل.

3) وهم الخلود

من بين ما يدعونا إلى تخليق البطل واتباعه إلحاح داخلى (وخارجي) بأننا كيانات باقية، أو لابد أن تظل باقية. نحن نعجز عن تحقيق ذلك فى واقعنا الشخصى (وحتى فى مخيلتنا) من هنا يصبح البطل مسقطا مناسبا ليس فقط لأسطورتنا الذاتية، وإنما لخلودنا الملوح مع استحالته فينا حالا .البطل من هذا المنطلق يقوم باللازم حيا وميتا) تذكر أن أبطال التاريخ يوصفون عادة بالخلود، وإن كانت الصياغة قد تلتوى لنستعمل تعبير "خالد الذكر" بدلا من "الخالد") (2)

وبعد..

.. نكمل الأسبوع القادم كيف تعرت خدعة تقديس البطل وتفرده وكيف نأمل فى معرفة مواصلة الطريق إلى تخليق كل منا أسطورته الذاتية إذ يكمل مسار تطوره.

[1] – نشرت فى مجلة سطور – عدد مارس 2003

[2] –أنظر أيضا كيف قمت بتعرية ضلال الخلود فى مقابل اللانهاية فى نقدى فى دورية محفوظ: "تشكيلات الخلود بين "ملحمة الحرافيش"، و"حضرة المحترم" – العدد السادس : ديسمبر 2013 – دورية نجيب محفوظ – المجلس الأعلى للثقافة.

وهم الخلود
من بين ما يدعونا إلى تخليق البطل واتباعه إلحاح داخلى (وخارجي) بأننا كيانات باقية، أو لابد أن تظل باقية

نحن نعجز عن تحقيق ذلك فى واقعنا الشخصى (وحتى فى مخيلتنا) من هنا يصبح البطل مسقطا مناسبا ليس فقط لأسطورتنا الذاتية، وإنما لخلودنا الملوح مع استحالته فينا حالا

إرتباط كامل النص:
www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD160119.pdf

*** *** ***

الكتاب السنوي 2019 لـ " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار السادس)

الشبكة تطفئ شمعتها الثامنة عشر وتدخل عامها التاسع عشر من التأسيس

18 عاما من الكدح... 15 عاما من العطاء "

(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)

(رابط الكتاب)

http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

http://www.arabpsynet.com/

المتجر الالكتروني

http://www.arabpsyfound.com

شبكة علوم النفس العربية

نحو لياقة نفسانية أفضل

مؤسسة العلوم النفسية العربية

معا ... نذهب أبعد

Arabpsynet